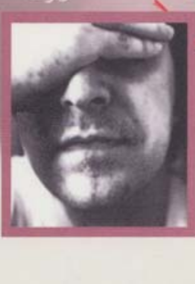
لويس سبولفيدا

مذكرات قاتل عاطفيّ

ترجمة اسكندر حبش

رواية



دار الآداب

لويس سبولفيدا

مذكّرات قاتل عاطفيّ

رواية

ترجمة إسكندر حبش

دار الآداب - بيروت

مذكّرات قاتل عاطفيّ

مذكّرات قاتل عاطفيّ

لويس سبولفيدا/روائيّ تشيلي

الطبعة الأولى عام ٢٠٠٢

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 123 4-11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

يومٌ أوّل

بدأ النّهار بشكلٍ سيّئ، لا لأنّني شخص متطيّر بل لاعتقادي أنّ ثمّة أيّامًا هي هكذا، إذ من المستحسن أن لا يقبل المرء فيها، أيّ عقد عمل حتّى وإن كان مقابل صكٍّ ذي ستّة أصفار، معفًى من الضرائب. بدأ النّهار بشكل سيّئ، إذ، في وقت متأخّر، حطّت بي الطائرة في مدريد، عند الساعة السادسة والنصف، كان الطّقس حارًّا جدًّا، وعلى الطريق إلى فندق بالاس، أصرّ السّائق على إلقاء محاضرة على مسمعي، حول كأس أوروبا بكرة القدم. تملّكتني رغبة في وضع فوهة مسدّس من عيار ٤٥، على رقبته ليغلق شدقه، بيد أنّني لم أكن أملك واحدًا. لأنّ على القاتل المحترف أن لا يثير المتاعب مع شخص قميء، حتّى وإنْ كان سائق تاكسي.

استلمتُ، في بهو الاستقبال بالفندق، المفاتيح ومغلّفًا فتحته وأنا في المصعد. كان يحوي صورة شخص لم يعجبني: شابٌّ في الخامسة والثلاثين من

عُمره، نحيف، ليس قبيحًا، يجلس إلى منصّة برفقة خمسة أشخاص آخرين يشبهونه. على الطّاولة، ثمّة لافتة مكتوب عليها «اللّقاء الثالث للمنظّمات غير الحكوميَّة». ولا مرّة أحببت فاعلي الخير، وهذا الشخص، تفوح منه عطنة الأعمال الخيريَّة الحديثة. ثمَّة أخلاقيَّة مهنيّة صغيرة، كانت تمنع علينا طرح الأسئلة حول مهنة الذين يتوجّب علينا تصفيتهم، بيد أنّني، لمّا نظرت إلى الصورة، عُدت وأحسست بالفضول، فشعرت بالانزعاج. ما من شيء آخر داخل المغلّف، وهذا أمر طبيعيّ. عليّ أنْ أبدأ بالتآلف مع هذا الوجه، أن ألاحظ التفاصيل التي تنمّ عن قوّته أو عن ضعفه. لا يكذب الوجه الإنسانيّ أبدًا: إنّه الخارطة الوحيدة التي تحفظ جميع الأراضي التي سبق أنْ سكنّاها.

رنّ جرس الهاتف، بينما كنتُ أناول البقشيش للخادم الذي أصعد حقيبتي إلى الغرفة. عرفتُ صوت المتّصل، إنّه شخص لم ألتقِ به أبدًا ولا أرغب في رؤيته، هكذا هو الأمر عند المحترفين. إلاّ أنّني أستطيع تمييز صوته من بين ألف صوت.

ـ هل قمتَ برحلة جيّدة؟ هل استلمتَ المغلّف؟ آسف لأنّني أفسدتُ عليك إجازتك، قال لي

على سبيل التحيّة.

ـ بالنّسبة إلى السؤالين، نعم، لكنّني لا أصدّق ما قلته في النهاية.

ـ سترحل غدًا، حاول أن ترتاح.

ـ حسنٌ، وأقفلت الخطّ.

تمدّدتُ على السرير ونظرتُ إلى ساعتي. ستحطّ الطائرة القادمة من مكسيكو التي تحمل على متنها «صاحبتي» ـ أيّ تسمية بلهاء هي هذه التسمية ـ عند الساعة الخامسة، وتخيّلتها مبرنزة بالكامل من جرّاء شمس فيراكروز. كنت وعدتها بتمضية أسبوع في مدريد قبل العودة إلى باريس. أسبوع للقيام بجولة على المكتبات والمتاحف، هذه الأشياء التي تحبّ القيام بها، أتقبّلها وأنا أداري تثاؤبي، إذ إنّ صاحبتي هذه ـ أجل من البلاهة تسميتها هكذا ـ تحيا في داخلي.

يحيا القاتلُ المحترف وحيدًا، أمّا ما يخصُّ متطلّبات الجسد فالعالم يقدّم تشكيلة واسعة من العاهرات. لقد احترمت دائمًا، وبشكل جذريّ، هذه الوصيّة الكارهة للنّساء. دائمًا، حتّى اليوم الذي تعرّفت فيه إليها.

كان ذلك في أحد مقاهي السان ميشال. كانت

جميع الطاولات ملأى بالزبائن، فسألتني إن كانت تستطيع الجلوس إلى طاولتي. كانت تحمل حزمة من الكتب وضعَتْها أرضًا، وطلبت «إكسبرسو» وكوب ماء، تناولت كتابًا وبدأتْ بوضع خطوط تحت جُمل، بواسطة قلم. تابعتُ ما كنت أقومُ به قبل وصولها: تفحّص برنامج سباق الخيل.

فجأةً، طلبتْ ما تشعل به سيجارتها. مددتُ يدي بالقدّاحة فتناولتْها منّي. إنّها تبحث عن شيء هذه الصغيرة. ثمّة نساء يعرفن كيف يُعبّرن عن رغبتهنّ في المضاجعة من دون أن يكنّ بحاجة إلى الكلام.

ـ كم عمرك؟ سألتها.

ـ أربع وعشرون سنة، أجابني فمها الصغير الأحمر.

ـ أنا في الثانية والأربعين، اعترفت لها وأنا أنظر إلى عينيها اللّوزيّتين.

ـ لا زلتَ شابًّا. كَذَبَتْ بكلّ الحرارة التي كانت تضوع من حركاتها وهي تدخّن وهي تسوّي شعرها ذا اللّون الكستنائيّ الناضج، والملمس الدقيق والناعم للمياه التي تتساقط فوق الصخور المغطّاة بالزبد.

ـ ترغبين في تناول الطعام قبل المضاجعة أم

بعدها؟ سألتُها وأنا أنادي النادل كي أدفع الحساب.

ـ كُلْني وضاجعني بالترتيب الذي يعجبك، أجابتني وهي متمسّكة بكتبها.

خرجنا من المقهى ودخلنا إلى أوّل فندق. لا أذكر أبدًا أنّني كنت في سرير، مع فتاة تنقصها الخبرة إلى هذا الحدّ، لم تكن تعرف شيئًا، بَيْدَ أنّها كانت ترغب في التعلّم. وقد تعلّمت، لدرجة أنّني انتهكتُ قاعدة الوحدة البسيطة، وأصبحتُ قاتلاً يحيا كزوج.

كانت ترغبُ في أن تصبح مترجمة، ومثل جميع المثقّفات، كانت ساذجة بما فيه الكفاية، لتبتلع جميع الحكايات، ما جعلني لا أجد أيّ صعوبة في إقناعها بأنّني كنت ممثّل مؤسّسة جوّيّة وأنّني كنت أسافر كثيرًا.

ثلاث سنوات معها. أصبحت امرأة بسرعة، ولفرط ما استعملتْ وركيها نضجا، وأصبحت نظرتها لئيمة، لقد فهمت أنّ المتعة هي التطلّب فتعلّقت بالحرير وهو على جسدها وبالعطور الخاصّة والمطاعم ذات النذّال الأنيقين مثل السفراء وبالمجوهرات المبتكرة. لقد اجتازت الخطوة

الكبيرة التي تُباعد ما بين القطّ الصغير والكبير.

في غضون ذلك، كنتُ انتهكتُ عدّة قواعد من قواعد السلامة، وبخاصّة، تلك التي تلحّ على التوحّد والخفاء والتستّر وأن لا يكن المرء سوى ظلّ، حتّى أنّ الشقّة الخاصّة بالاتصالات، أصبحت المكتب الذي كنت أُمضي فيه نهاراتي كلّها، بينما، في فترات بعد الظهر والليل، كنّا نتقاسم شقّة أخرى، تفوح منها رائحة المنزل البورجوازيّ، إذ إنّ أصدقاءها، كانوا يقصدونها لتقيم فيها الحفلات. خلال هذه السنوات الثلاث، حصلتُ على عدّة عقود عمل في آسيا وأميركا، حتّى اعتقدتُ، بأنّني قد تجاوزتُ صفتي الاحترافيّة، لأنّني تصرّفت بسرعة كي أعود قربها. لقد قلت لكم، كانت تحيا في داخلي.

نحو التاسعة مساء، قرّرتُ الخروج كي أتناول شيئًا ما ولأشرب عدّة كؤوس من «الجِنّ». لن تحبّ أن أتركها وحدها في مدريد. لقد دفعتُ ثمن شهر إجازة في المكسيك كي أبعدها عنّي، بينما كنتُ ذاهبًا إلى موسكو لتنفيذ عقد عمل. كان بعض الرّوس وقحين مع شخص من كالي، وقد كلّفني هذا الأخير، بأن أذكّرهم بأنّهم ليسوا سوى هواة.

كلاّ. لن تحبّ أبدًا أن أتركها وحيدة في مدريد. على كلّ، سأحدّثها بالأمر، بعد أن أكون قد ضاجعتها مرّتين أو ثلاث مرّات.

بعد أن ملأت بطني بثمار البحر في مطعم غاليسيّ، قمت بجولة كبيرة في حيّ برادو. عليّ أنّ لا أفكّر بالشخص الذي في الصورة بيد أنّني لم أكن أنجح في إخراجه من رأسي. لم أكن أعرف اسمه ولا جنسيّته ولا وزنه. إلاّ أنّ شيئًا كان يقول لي، بأنّه أميركيّ جنوبيّ، وبأنّ دربينا ـ لحسن الحظّ أم لسوئه ـ قد بدآ بالتقارب.

ـ هذا الشخص مجرّد عقد ولا شيء آخر. عقد، ما إن يتوقّف عن التنفّس حتّى يجلبَ لك صكًّا ذا ستّة أصفار معفًى من الضرائب. لذلك توقّفْ عن التلفّظ بالحماقات، قلتُ لنفسي وأنا أدخل إحدى الحانات.

جلستُ إلى المشرب، طلبت كأس «جِنّ» وقرّرت أن أفرغ ما في رأسي. وأنا أنظر إلى التلفاز الذي كان يتصدّر الحانة. على الشاشة، كانت هناك حمقاء سمينة تتلقّى الاتّصالات الهاتفيّة، من حمقى آخرين، ومن ثمّ كانت تدير عجلة «تومبولا»(١).

(١)يانصيب خيري.

الجوائز أحمق من المشاركين. في فترة الاستراحة، امتلأت الشاشة بشابّات يرتدين التنانير القصيرة، وقد جَعَلْنَنِي أفكّر بجميلتي الصغيرة. بعد ساعتين ستحطّ الطائرة بجميلتي الفرنسيّة. لنقل إنّه بعد ساعتين ونصف ستكون برفقتي في الفندق. لن أذهبَ للبحث عنها بسبب القاعدة التي تطالب بتجنّب المطارات الدوليّة. إنَّ هناك احتمالاً من ألف في أن يتعرّف عليك أحدهم، لكنّ قانون مورفي، يُثقل كاهل المحترفين، كلعنة.

شربتُ كأسَيْ «جِنّ» أمام التلفاز وخرجت. لم تنجح سمينة اليانصيب الخيريّ في إبعاد صاحب الصورة عن فكري. لكن، يا إلهي، ماذا يحدث لي؟ فجأة، رأيت نفسي وأنا أسأل وسيطي ماذا فعل ذلك الرّجل الآخر: «أريد أن أعرف لماذا عليّ قتله؟» أمر سخيف. السّبب الوحيد وجود صكّ بستة أصفار. كنت متيقّنًا أنّني لم أشاهده من قبل. حتّى وفي هذه الحالة، فإنّ ذلك لن يغيّر شيئًا. ذات يوم، قمت بتصفية رجل، كنت أُكِنّ له التقدير. بَيْدَ أنّه بحث عن ذلك. وحين رآني، فهم أنّه لم تكن هناك وسيلة للهرب.

ـ لقد حانت ساعتي أليس كذلك؟ سأل.

ـ هكذا هو الأمر. لقد ارتكبتَ خطأ وأنت تعرفه.
ـ أنتناول كأسًا أخيرة؟
ـ كما ترغب.

سكب كأسَي ويسكي، دَقَقْنا كأسًا بكأس، شربَ وأغمضَ عينيه. كان رجلاً محترمًا، وقد حاولت الرّصاصةُ الأولى أن تمحوه من قائمة الأحياء.

لكن، لماذا أيّها الشيطان، يؤرّقني صاحب الصورة؟ إنّه يشبه أولئك الذين يعملون في إحدى المنظّمات غير الحكوميّة، بيد أنّ العقد غير موقّع من هذا الطرف. ما من منظّمة من تلك المنظّمات، تملك ما يكفي من المال كي تدفع بدل خدمات قاتل محترف، وأعتقد أنّها لا تحلّ مشكلاتها بهذه الطريقة.

عدتُ لأسلك درب الفندق بمزاج سيِّئ. كانت اللّيلة لا تزال حارّة جدًّا وكنت مغتبطًا بجميلتي الفرنسيّة. على الأقلّ. لن تشتاق إلى حرارة فيراكروز. كانت تعشق أن تُعضّ عُنُقها، وبما أنّها تعود مبرنزة كلّيًا، سيكون الأمر، كدعوة إلى عضّ جميع أنحاء جسدها. حسنًا، قلت لنفسي، إنّك تفكّر الآن كرجل طبيعيّ.

مدّ لي عامل الاستقبال مفتاحًا ومغلّفًا. لم

يعجبني هذا الأمر. إنّ الوسيط لا يعطيني أبدًا تعليمات خطِّيَّة. في الغرفة، تناولتُ زجاجة بيرة من «الميني بار» وفتحتُ المغلّف. كان «فاكسًا» من مكسيكو، من جميلتي الفرنسيّة.

«لا تنتظرني. أنا آسفة، ولكنّني لن أجيء أبدًا. لقد التقيتُ برجلٍ جعلني أرى العالم بشكل مختلف تمامًا. أحبّك، لكنّي أعتقد أنّني عاشقة. سأبقى أسبوعين في مكسيكو قبل أن أعود إلى باريس. سنتحدّث بكلّ شيء. أريد أن أبقى معه للأبد. لكنّني سأعود من أجلك لأنّني أحبّك ولأنّه ينبغي علينا أن نتحدّث. أقبّلك».

القاعدة رقم واحد: أن يكون المرء وحده وأن يُعزّي نفسه برفقة عاهرة. طلبتُ أن يبعثوا لي بصحيفة الصباح، بحثتُ فيها عن زاوية «استرخاء» بين الإعلانات الصغيرة. وبعد نصف ساعة، قُرع البابُ، فَتَحْتَهُ، فدخلتْ شابّةٌ خلاسيّة تجرّ خلفها كلّ رياح الكاريبي الساخنة.

ـ ثلاثون ألفًا مقدّمًا، يا حبّي، قالت وهي تنحني على «الميني بار».

ـ هاكِ مائة ألف، شرط أنْ تُحْسِني التصرّف.

ـ إنّني أتصرّفُ دائمًا بشكل حسن، يا عزيزي،

أجابت وهي تمدّ فمها الكبير الأحمر.

لقد فَعَلَتْها. تبدّد مفعول ثمار البحر بعد الجولة الثالثة، قالت وهي ترتدي ملابسها:

ـ أنت صامت جدًا يا عزيزي. أنا، أشعر بالهيجان حين يتحدّثون معي، حين يقولون لي التفاهات. أأنت هكذا دائمًا؟

ـ كلاّ، لكن اليوم، عرفت يومًا سيِّئًا، يومًا سيِّئًا جدًّا. إنّه يومٌ خراء.

أجبتُها هكذا لأنّ الحقيقة كانت كذلك، الحقيقة العاهرة.

حين رحلت الفتاة، حاملة معها مئة ألف بيزيتا وهواء الكاريبي الساخن، اتّصلتُ بالبار طالبًا زجاجة ويسكي.

وأمضيتُ ليلة هذا اليوم السيِّئ، من دون أن أفتح الزجاجة، بالرّغم من رغبة عارمة في أن أسكر، في أن أتحدّث مع صورة ذلك الشخص الذي عليّ قتله، إذ حتّى وإن كنت مخدوعًا، على المحترف أن يبقى محترمًا، دائمًا.

يومٌ ثانٍ

- لا أعرف ما الذي فعلتَهُ، لكنّك، يا أخي، شخص هالك. إن كان بإمكان ذلك أن يعزّيك، فلتعرفْ أنّ الذي سيقتلك هالكٌ مثلك، والأنكى من ذلك، أنّني أحسدك، لأنّ كلّ شيء بالنّسبة إليك سينتهي في اللّحظة التي سأطلق فيها النّار عليك، بينما أنا، سأستمرّ، يا أخي، في العيش.

كنت سأهمّ بسؤال الشخص الذي في الصورة، أيّ نوع من الرّجال هو، وعمّا إن كان ينتظرني، صدفة، حين قطع رنين الهاتف، استجوابي هذا. قبل أن أجيب، سحبت الستائر وفتحت النوافذ، كي يبدّد الهواء دخان السجائر، المئة، التي دخّنتها في اللّيلة الماضية. النهار مشرق وضوء مدريد يُعمي البصر كالعادة.

- هل نمتَ جيّدًا؟ حيّاني الوسيط.

- أهناك شيء جديد فيما يخصّني؟

- متاعب. الكثير من المتاعب، العديد من

المتاعب. تنهّد قائلاً.

ـ إنّك تضخّم الأمور، تعرف جيِّدًا بأنّني أغادر اليوم، ذكّرته.

ـ بالطبع، لكن قبل ذلك أنت على موعد مع رسول في بار الفندق. سيصل في العاشرة تمامًا، وسيسأل عن «توريس سول»، التي أنت مديرها. سأتّصل بك في العاشرة والرّبع.

ـ آه، كان تعليقي الوحيد.

نظرت إلى ساعتي. كانت التاسعة صباحًا، فوقفت تحت «الدّوش»، حيث بقيت فترة طويلة تحت مصبّ المياه الباردة.

ـ حسنٌ. سيحدث ذلك في يوم من الأيّام. إنّها شابّة وأنت الآن على المنحدر. لكن، ما الذي يزعجك إلى هذا الحدّ؟ لقد صنعتَ منها امرأة، وأيّ امرأة! إذًا، ما نفع التشكّي. قال لي، في المرآة، شخصٌ عارٍ كان يشبهني كأخ.

ـ أنا لا أشكو، أعرف كيف أخسر، لكنّني لا أحتمل الغدر أبدًا، أجبته بينما كنّا نتقاسم معجون الحلاقة عينه.

ـ قاتل ويتحدّث عن الاستقامة. أيّها القذر، قال لي وهو يرفع آلة حلاقة تشبه آلتي.

عند العاشرة بالضّبط، كنت في بار فندق بالاس، حيث طلبت «سندويتش» دجاج وزجاجة بيرة. كان الرّسول دقيقًا في موعده. إنّه صبيّ في الثامنة عشرة من عُمره. يرتدي ملابس كملابس ميغيل أندوريان[1] دخل وهو يلوّح ـ كما لو أنّها كانت كأس دورة فرنسا للدرّاجات الهوائيّة بلافتة كتب عليها «توريس سول».

أعطاني مغلّفًا وشكرني على الألف بيزيتا، التي ناولته إيّاها كبقشيش، رافعًا يده حتّى صدغه. أكلتُ السندويتش وشربتُ البيرة وعدتُ إلى غرفتي.

هناك، وفي انتظار اتصال الوسيط، فتحتُ المغلّف. كان يحوي خمس صور للشّخص الذي كنت قد تحاورتُ معه طوال اللّيل تقريبًا. في الأولى، كان ينزل من سيّارة ميرسيدس، زرقاء اللّون، مُسجّلة في ليما. شعرهُ كستنائيّ اللّون، أو أشقر غامق، طويل بما فيه الكفاية، كما في الصورة التي أعرفها. في الثانية، كان يقذف كرة في ملعب للغولف. ثمّة صبيّ صغير وسمين يشير له إلى شيء في البعيد، بينما لم يكن المشهد الطبيعيّ المشجّر في الخلفيّة، يعني له شيئًا. في الصورة الثالثة، كان

(١) بطل إسبانيا والعالم، السابق، في لعبة الدرّاجات الهوائيّة (م).

يدخل إلى منزل يبدو لي كأنّه يقع في أحد شوارع أميركا الجنوبيّة أو في المكسيك، على واجهته، إعلان ما، لكنّ المصوّر لم يلتقط منه سوى كلمة «ڤيدا». الرّابعة، بدت كأنّها نسخة أخرى عن تلك البلاد التي شاهدتها قبل ليلة. الطاولة هي نفسها، لكنّ هناك أناسًا آخرين وثمّة اختلاف في اللاّفتة، إذ كُتِبَ عليها: «اللّقاء الثاني للمنظّمات غير الحكوميّة». في الصورة الأخيرة، وجدت صعوبة في التعرّف إليه. كان شعره طويلاً، وذا لحية نابتة من أسابيع. لقد أزعجني شيء ما في هذه الصورة، فاقتربت من النافذة كي أتأمّلها بانتباه أكبر. كان يسير في شارع عرفته على الفور، لقد التقطت الصورة في اللّحظة التي كان يمرّ فيها من أمام مكتبة «البندول» في مقاطعة «كونديسا»، في المنطقة الڤيدراليَّة الكبيرة في مكسيكو، لكن ليس ذلك ما أزعجني، بل ما كان ينفخ حجمه بتغطرس. كان يرتدي كنزة برتقاليّة اللّون وسروال جينز، وهو، إمّا يحمل قضيبًا طويلاً في حزامه، وإمّا يحمل بندقيّة تحت كنزته. في هذه اللّحظة رنّ جرس الهاتف.

ـ هل استلمت المخطّطات؟ سأل الوسيط.

ـ أجل، وأعتقد أنّ الأرض قد جُهّزت.

ـ إنّ المكلّفين يرغبون في عمل كامل ولا يُنسى في الوقت عينه.

ـ حسنْ. متى عليّ أن أغادر؟

ـ عليك أن تنتظر لبضعة أيّام. إذ تنقصنا الموادّ الضروريّة الأهمّ.

ـ حسنْ. سأعود اليوم إلى باريس. اِتّصلْ بي إلى هناك: وأغلقتُ السمّاعة.

إذًا لقد اختفى الرّجل. «تنقصنا الموادّ الضروريّة الأهمّ». أين يمكن له أن يكون؟ ناهيك عن أنّهم يطلبون له موتًا لن يستطيع أحد نسيانه. حسنٌ، لم يكن نوع العَقْد الذي كنت أتقبّله بسرور. المرَّة الأخيرة التي قمت بها بعمل مماثل، كان في لوس أنجلوس، مع شخص نسي تسديد ديونه. لقد توجّب عليّ قتل حارسين كي أدخل إلى منزله، إنّ عملاً إضافيًّا لا ينفّذ بهذه الطريقة. إذ بعد أن ربطته، ووضعت حول عنقه قنبلة وهميّة. اتّصلت بالشرطة ورجال الإطفاء وبرجال الطوارئ، وقبل ذهابي أطلقت سبعة عيارات ناريّة في فخذه الأيمن، نزفَ دمه وهو يطلب المساعدة، بيد أنّ أحدًا لم يرغب في الاقتراب منه، خوفًا من انفجار القنبلة.

أمّا بالنّسبة إلى الشخص الذي في الصورة، فيبدو

أنّ أخطاءه هي من تلك الأخطاء التي يُحسب لها حساب، مثلما كان يبدو حاذقًا. لن يتّصل بي الوسيط إلاّ حين تكون القطع موجودة بالتأكيد، لأنّ عملي هو الوصول، القتل، ومن ثمّ الرّحيل. إيجاد القطع من مهامّ الذين يبحثون في الخراء.

صورة في البيرو، أخرى في مكسيكو. إنّ قصّة المخدّرات قصّة بسيطة، ومن ثمّ، إنّ نوعًا مثل هذا من الأعمال، يتمّ تنفيذه من قبل العملاء، إلاّ إذا كان المذنب أحد «الشخصيّات المهمّة جدًّا». على كلّ، على كلّ، يا أخي، قلت لنفسي وأنا أنظر إلى الصور، ماذا فقدت في المكسيك وفي البيرو؟ بالأحرى، ماذا وجدت في هذين البلدين؟ وماذا يعني أن تلعب دور محبّ الإنسانيّة في مؤتمر للمنظّمات غير الحكوميّة؟ ربّما ستشرح لي حين تحين ساعتك. أؤكّد لك بأنّنا سنأخذ وقتنا في محادثة مفيدة.

كنت أهمّ بدفع فاتورتي حين نبّهني موظّف الاستقبال أنّ هناك اتّصالاً لي. كانت مقصورة الهاتف تشبه حمّام سونا، وقد ارتفعت درجة الحرارة حين تعرّفتُ على صوت جميلتي الفرنسيّة.

ـ كيف حالك؟ سألتُ بصوتٍ مرتبك.

ـ أشعر بالحرارة.

ـ هل استطعتَ النوم؟ تابعتْ بنبرة منهمكة.

ـ بالطبع. لقد أخذتْ منّي إحدى الخلاسيّات مئة ألف بيزيتا ونصف ليتر من السّائل المنوي. هذا أفضل من الڤاليوم، قلت لها محاولاً أن لا أبدو كمربٍ.

ـ مضت ثلاثة أيّام لم أنجح فيها بإغلاق عينَيّ. اعترفتْ وهي تشهقُ بالبكاء.

ـ آسف. لا أستطيع مضاجعتك عبر الهاتف، لكن إن كانت تلك هي مشكلتك، تستطيعين الاستفادة من بطاقة «الأميركان إكسبرس» كي تدفعي إيجار «جيغولو»[1] مكسيكي، نصحتها قبل أن أغلق الهاتف، إلاّ أنّ المسافة القصيرة ما بين أذني والهاتف، لم تنجح في منع المقصورة من أن تمتلئ بنحيبها وبكلمات من مثل «يا حبّي، إِسمعني، أرجوك،» والتي التصقتْ على جسدي بذات الإلحاح الذي يلتصق فيه العرق.

في الطريق نحو المطار، كان عليّ أن أحتمل وحشًا آخر من أولئك الوحوش الثرثارين، الذين هم

(١) قوّاد.

عليه سائقو سيّارات الأجرة في مدريد.

ـ هل تحبّ الثيران؟ بادرني بالهجوم.

ـ الأمر منوط بدرجة اكتوائه.

ـ ليس هذا ما أعنيه، إنّني أكلّمك عن الكوريدا، عن «التوريروس»، أتفهم ما أعني؟

ـ أمّا أنا فسأتحدّث عن الخصيتين، الخصيتين المشويّتين، أمّا خصيتا الثور. أتفهمني؟

بدا عليه أنّه فهم، إذ بدلاً من أن يمجّد مصارع ثيران، تلقي النّساءُ حمّالاتِ صدورهنّ عليه، بدأ التشكّي من العرب والسود والغجر واللاّتين ومن البشريّة جمعاء التي لا تتناسب مع معاييره كأوروبيٍّ سمين تفوح منه رائحة البطاطا المقليّة. مرَّة أخرى، ندمت على عدم وجود مسدّس من عيار ٤٥ في يدي اليمنى.

في المطار، وقبل أن أسجّلَ أوراقي، توجّهتُ إلى المراحيض كي أبدّلَ قميصي. في المرآة، كان هناك شخص يشبهني، يجفّفُ وجهَه بالفُوَط الورقيّة، التي كان يمدّ بها إليه رجل نحيف وصامت يشبه ذاك الذي إلى جانبي.

ـ يجب عدم المبالغة، قال الشخصُ الذي في المرآة.

ـ لا أعرف عمّا تتحدّث.
ـ عفوًا، هَمَسَ النحيفُ ذو الفوط.
ـ إنّني لا أتحدّثُ معك! وأبعدْتُهُ بدفعة واحدة.
ـ أرأيت؟ اِهدأ. ثمّة قطيع من الفتيات مثلها. اِسمعْ، لا زال أمامك وقت، سجّلْ حقيبتك واذهبْ لتناول كأس «جِنّ». نصحني الشخصُ في المرآة.

وهذا ما فعلتهُ. عادة، أتبع نصائحه، وبخاصّة العمليّة منها. أذكر عقدًا حصلت عليه في منتصف الثمانينيّات، كان عليّ تصفية رجل صناعيّ في مدينة أوستن بولاية تكساس كان الرّجل خبيثًا جدًّا، وقد وجد أفضل حماية، لتنقّلاته نحو مكتبه. كان يستقلّ حافلة مدرسيّة مليئة بالأطفال، وكان يجلس في وسطهم. الصحافة التكساسيّة تحدّثت بإعجاب عن فاعل الخير هذا، الذي تخلّى عن سيّارة الليموزين والذي كان يُموّل النقل المدرسيّ. ما لم يُحكَ عنه، أنّ ابن العاهرة هذا، كان يستخدم الأطفال بمثابة دروع بشريّة.

ـ لا أريد قتل الأطفال، بيد أنّه ليس أمامي حلٌّ آخر، فمكتبه حصين، قلت للشخص في المرآة.
ـ اِضغط على رأسك، المستهدف من اليانكي

وذلك أمر مرادف للوطنيّ، أتراهن؟

ـ لا تزدْ أيّ كلمة. لا أحبُّ أن تتحدّثَ كوسيط روحيّ.

ـ إنّ يوم ٤ تمّوز ليس ببعيد، ولن يتركَ هدفُكَ هذا مناسبة الأدرينالين الوطنيّة، تمرُّ هكذا. لتجدْ حلاً في هذا الجانب.

ومن هذا الجانب مرَّ الأمر. لقد تحقّق أحد الباحثينَ في الخراء، لصالحي، بأنّ العقد، قد حضّر نزيفه الوطنيّ، في اليوم السابق على يوم الاحتفال. إذ بدأتُ في الثالث من تمّوز، بعد أن تنكّرتُ بزيِّ أحد الأقزام السبعة، زيّ ذلك الساذج ذي الأذنين الكبيرتين، فوقفتُ وسط الذئاب المفترسة، وسط المتنكّرين بثياب دونالد وميكي وغيرها من الوحوش التي كانت تنتظر الحافلة المدرسيّة، على مفترق طريق. كي يقدّموا مئات الأعلام الصغيرة المنجّمة والمُلَبّس وصكوك ماكدونالد.

توقّفت الحافلة عند الساعة المحدّدة، فاقتربنا أنا والأطفال من الوجوه التي كانت على النوافذ. كان هدفي برفقة حارسين، ربّما لا يزالان حتّى الآن يتساءلان عن الذي استطاع النفاذ، إذ إنّني تصرّفت ما إن رأيتُه، فمِنْ على مقربة مترين، أسكنتُ رأسه

رصاصة متفجّرة من عيار ٤٥. فوسط صرخات الأطفال، لم تزدْ فرقعةُ المسدّس الصامت عن تنهيدة، فسقط الهدف وفي جبهته ثقب، بينما، يتسرّبُ دماغُه من أذنيه. كان عملاً نظيفًا، حتّى وإن كنت أكره استخدام الرّصاص المتفجّر، لأنّه يُتْلِفُ حزّات القناة.

كنت أحتسي كأس «الجنّ» الثانية حين ألقيت نظرة آليّة على الصحيفة التي كان يقرأها جاري على المشرب. كانت صحيفة تركيّة، ولم أكن أفهم كلمة من العناوين، إلاّ أنّ هدفي كان هنا، مبتسمًا وسط مجموعة من الرّجال والنّساء.

ـ هل تتحدّث الإنكليزيّة؟ سألتُ قارئ الصحيفة.

ـ أتحدّثُ الإنكليزيّة والإسبانيّة والفرنسيّة والألمانيّة. ليس من السّهل بيع السجّاد في أيّامنا هذه، أجابني وهو يحرّك شاربين كثّين.

ـ الرّجل في هذه الصورة، الثالث، صديق قديم لي. أتستطيع أن تقول لي، ماذا يقول الخبر، تحت الصورة.

ـ يقال إنّ المجموعة تشارك في مؤتمر هندسيّ حول موضوع ميغالوبوليس وتدفّق المهاجرين. لقد بدأ المؤتمر البارحة وينتهي بعد ثلاثة أيّام.

هذا كلّ شيء.

ـ وأين يدور هذا المؤتمر؟

ـ في إسطنبول. إنّها مدينة جميلة. أنا من هناك، قال بائع السجّاد.

بعد بضع دقائق، فاجأ اتّصالي الهاتفيّ، وسيطي.

ـ في إسطنبول؟ هل أنت واثق.

ـ إنّه يشارك في مؤتمر هندسيّ ينتهي بعد ثلاثة أيّام.

ـ اِبقَ مكانك وعاود الاتّصال بي بعد ساعة.

وهذا ما فعلته. سمعت أنّهم ينادون، لمرّات عدّة، على شخص يحمل اسمي نفسه، طالبين منه الاستعجال للصعود إلى متن الطائرة، وعرفت أنّ حقيبتي ستغادر بدوني، وبأنّها ستدور على نقّال مطار باريس، وحدها، مهملة، أثناء مرور الدقائق الستّين، التي كانت ستقلّني، ربّما، إلى إسطنبول، نحو هدفي، نحو الرّجل الذي كان عليّ أن أشطبه من الخارطة بشكل نموذجيّ.

يومٌ ثالث

في جميع عواصم العالم هناك فندق يحمل اسم شيراتون، وهي كلّها فنادق متشابهة. أمّا موظّفو الاستقبال فيها، فيبدون كأنّهم خارجون من قالب كونيّ، ويقولون دائمًا الشيء ذاته.

- هل لديك حجز عندنا؟

كان لديّ واحدٌ. فالوسيط دقيق بالنّسبة إلى هذه الأمور لكن وكما دائمًا في فنادق الشيراتون، اختاروا لي أسوأ غرفة. الأمر سيّان. لم آتِ إلى إسطنبول للسياحة وإنّما لأراقب الهدف.

- يزعجني أن أتعرّف عليه، بيد أنّه مادّة من الصعب العثور عليها، قال وسيطي.
- وإن وجدتُه، ماذا أفعل؟
- لن تشتري هناك، فالمكلّفون يرغبون في منتوجات وطنيّة.

كنتُ مغترًّا بكوني محترفًا جيّدًا، إلاّ أنّ هذه الكلمات أراحتني. لم أكن مستعدًّا لأتصرّف في

إسطنبول فأنا لا أعرف المدينة، ومنذ خروجي من المطار، جعلني العسكريّون الأتراك عصبيًا. إنّهم ينظرون بإلحاح إلى كلّ من يبدو لهم كرديًا أو على علاقة بالأكراد. سيكون من الصعب التزوّد بسلاح ناريّ جيّد في تركيا.

لكن يا الله، من أين يخرج سائقو التاكسي؟ الذي أوصلني من الفندق إلى مركز المؤتمرات كان تركيًا ذا شاربين طويلين يشبهان مقود درّاجة هوائيّة، وما إن أَرَحْتُ عجيزتي على المقعد المغلّف بالبلاستيك حتّى جعلني عرضة لهوايته المحتدمة. لعن كلّ النّساء المرتديات التنانير القصيرة اللّواتي كنّ يتنزّهن في الشارع، وجميع إعلانات «الروم ـ باكاردي»[(١)] كما السجائر، وأخيرًا، بعد أن قال بأنّ الأمر غير موجّه ضدّي، ابتدأ بمهاجمة الغربيِّين الذين يجلبون العادات المفسدة. حين وصلنا إلى مركز المؤتمرات، تبرّز على والدة كمال أتاتورك. وبينما كنت أدفع له، وَعَدْتُ نفسي بتشريف محترفي الحبّ، وبأن لا أصف أبدًا بأبناء العاهرة أولئك الذين لا يستحقّون هذه التسمية. فابن الله كان يتراءى لي شتيمة أقسى.

---

(١) مشروب كحوليّ.

رجل غريب هو هدفي. إذ، في برنامج لقاءات ميغابوليس وتدفّق المهاجرين، كانت هناك صورته، اسمه ڤيكتور موجيكا، كما كانت هناك نبذة عن حياته تقدّمه على أنّه رائد المنظّمات غير الحكوميّة. جنسيّته: كان مكسيكيًا، ولد في غوادالاخارا، في جاليسكو العام ١٩٥٩. كان إذًا في السادسة والثلاثين: عُمر جميل للموت.

في كافيتريا مركز المؤتمرات، كان لا يبعد عنّي أكثر من مترين. لو قمتُ بتصفيته هنا، لبدا الأمر كلعبة مبتدئين. بيد أنّني لا أستطيع ذلك. عليّ أن لا أقوم بذلك، فالذين قاموا بالتوصية، يرغبون في أن يكون آخر هواء يتنشّقه هواء أميركيًا: لا يهمّ أيّ هواء، أكان يهبّ من الديوغراندي أو من كاب هورن. كان يتحدّث مع مجموعة من الرّجال والنّساء الذين ينظرون إليه بإعجاب. كان ينتقل في الحديث من الإنكليزيَّة إلى الألمانيّة ومن الفرنسيَّة إلى البرتغاليَّة مع الذين يحيطون به. طلبتْ منه امرأة، بالإنكليزيّة، أن يغنّي، رفض في بادئ الأمر من دون اقتناع، وأمام الإلحاح، أغلق عينيه لكي ينشد بصوت جميل إحدى أغاني الكوريدو.

«... رَغِبَتْ في البقاء حين شاهَدت حزني، بيد

أنّه كان مكتوبًا عليّ أن أفقدَ حبّي هذه اللّيلة. . . ».

يغنّي بشكل جيّد هذا المكسيكيّ المحترم ـ إن افترضنا أنّه كذلك. يملك تلك الثقة بالنفس، البارعة، التي تخون الخبيث، الباحث عن الغواني، الذي يجد نفسه وحيدًا ـ أبدًا ـ في السرير.

ـ حسن أيّها العجوز، ستمحو عن الخارطة شخصًا لطيفًا، قلتُ لنفسي. ومرّة أخرى، عدتُ وشعرتُ بالغباء لأنّني رغبتُ في معرفة لماذا كان يتوجّب عليّ قتله.

« . . . رغبت في إيجاد النسيان، كما في جاليسكو، إلاّ أنّ هذه التيكيلا[1] وأولئك المارياكي، جعلاني أبكي. . . ».

انتهى من الغناء وعيناه مغلقتان، كما لو أنّ أبيات الكوريدو تُشكّل جزءًا حميمًا منه، شيئًا لا نستطيع التخلّي عنه. وفي لحظة الصّمت التي سبقت التصفيق، امتلأ رأسي بصورة جميلتي الفرنسيّة. لقد كانت هناك، في المكسيك، تستفيد، ربّما، من نزيف الدموع الذي يحدثه هؤلاء المارياكي في ساحة غاريبالدي. إنّكم قذرون أيّها المارياكي، قذرون أيضًا كلّ أولئك الذين يأتون بهذه القطط

---

(١) مشروب كحوليّ.

الصغيرة المتهوّرة إلى هناك. فهم يعرفون أنّه بعد عدّة أغاني كوريدو، مسبّبة للدموع، فلن يبقى هناك أيّ ركبتين مشدودتين ولا أيّ سراويل داخليّة لتقاوم.

ـ لا أفهمك. جئتَ لترى الزبون، لتستنشقَه، لتقيسَه، فتأتي أغنية حمقاء لتجعلك تبكي، تقريبًا. وتتحدّث عن قاتل محترف! قال، في المرآة، الشخص الذي يرتدي سترة مثل سترتي.

ـ لا تتفوّه بالحماقات. تعرف أنّني أفي بالتزاماتي دائمًا.

ـ أتمنّى ذلك. وماذا تنوي أن تفعل الآن! قراءة رواية عاطفيّة؟

ـ أريدُ أن أتحرّى أعماله. سأذهبُ إلى فندقه.

ـ ليس هذا عملك. القضيّة هي أنّك ترغب في معرفة لماذا عليك أن تقتله. أعرف جيّدًا.

ـ وستقول لي ذلك؟

ـ بالطبع، لأنّك كي تقوم بذلك، سيقدّمون لك صكًا بستّة أصفار معفى من الضرائب، هذا هو كلّ شيء أيّها المغفّل.

جاءت ورقة الخمسين دولارًا لتزيد في صمت موظّف الاستقبال ذي الشوارب. كان الزبون يقيم

في فندق ريتشموند. لا بأس بهذا المكان. المدخل يرشح بالحنين للسلطنة العثمانيّة، والموظّف، كان، مثلما أفضّل: لسان دافئ وحركات بليغة.

ـ لقد تركتُ وثائق للسيّد موجيكا. إنّها مهمّة جدًّا وأريد أن أعرف إن كان استلمها.

استدار من دون أن يقول كلمة واحدة، وبحركاته الشبيهة بحركات لاعبي الخفّة أظهر لي الخانة الفارغة العائدة للغرفة ٤٠٥.

ـ لقد تمّ إيصال الوثائق فورًا للسيّد موجيكا، قال لِي بكبرياء خاصّ بفنادق الخمس نجوم.

أَصِلُ، أقتلُ، أرحلُ. هذا ما فعلْتُه خلال الخمس عشرة سنة الماضية. في هذه المهنة، نتعلّم الأشياء بدون أن ننتبه لها. أحد هذه الأشياء، الإحساس، في الوقت المناسبٍ، بتفصيل صغير، مختلّ.

ما كان مختلًّا في الممرّ الرئيسيّ لفندق ريتشموند، كان ذلك الشخص السمين الأصلع الذي يقرأ «النيويورك تايمز» وهو مستند على الحائط مقابل المصاعد. إذ على بعد متر من هذا المكان، كانت هناك مجموعة من المقاعد الليّنة، إلاَّ أنَّ السمين كان يقرأ واقفًا.

استقلَلْتُ المصعدَ وضغطتُ على زرّ الطابق

السّابع. في سكينة الممرّ دخّنت سيجارة بهدوء ومن ثمّ هبطت السلالم ببطء. في الطابق الرّابع، تنبّهت إلى أنّ قراءة النيويورك تايمز وقوفًا، ومقابل المصاعد، كان أمرًا منتشرًا. لم يكن ينقص القارئ الثاني إلاً قبعة تكساسيّة كي يُظْهِرَ جنسيّته.

حين شاهدني أظهر في الرواق، انهمك في القراءة. لعنت نفسي لأنّني ارتكبت خطأ المبتدئين: كان لدى السمين، في الأسفل، جهاز إرسال، وقد وصفني، وحين شاهدني أظهر على مدخل السلالم تأكّدتْ شكوكه. يا إلهي، ينبغي التصرّف بسرعة، وهذا ما فعلتُهُ.

ذهبتُ حتّى المصاعد، مدَدْتُ يدي كي أطلبه، ومن دون أن ألمس الدّائرة البلاستيكيّة الحمراء، استدرت وأنا أطوي ساقِيَ اليسرى، كي أرسلها نحو القارئ السادر.

وصلتْ ركلتي، مباشرة، إلى أعضائه التناسليّة، ومن دون أن أترك له الوقت ليستردّ أنفاسه، وجّهتُ له ضربتين على أذنيه. التصقتْ مجسّتا أذنيه في كتلة اللّحم. كان لديه مذياع جميل خلف ثنيَّة سترته ومسدّس من عيار ٣٨ ذو أستون مشطوب. وللمفاجأة، كان يحمل بطاقة مغلّفة جيّدًا بمادّة

بلاستيكيّة تفيد بأنّه أحد عملاء الـ DEA.

بعد بضع دقائق، لفظني أحد سلالم النجاة إلى الشارع. بدأت السّير. كنت بحاجة لأن أفكّر وبسرعة، الـ DEA تلاحق زبوني. أهو عميل إسطنبول؟ هل بدأ المكسيكيّون حرق السجّاد؟ كم رجلاً للـ DEA في إسطنبول؟ عليّ أن أجد المراحيض بسرعة كي أتكلّم مع نزيل المرايا الذي يعرفني جيِّدًا.

أشار إليّ تَعَبُ ساقيّ بأنّني أمضيتُ عدّة ساعات وأنا أسير بلا هدف، أو ربّما كان لديّ هدف، لكنّه، وبشكل غير إراديّ، إذا لم يكن يقودني إلى أيّ مكان، فهو يبعدني أكثر فأكثر عن قواعد الاحتراف.

تورّطتُ في أمر لا علاقة لي به، كنت منهمكًا في الأسباب التي توجب عليّ التخلّص من رجل، وإذا بي قد ضربت أحد عملاء الـ DEA، وكما لو أنّ هذا الأمر لم يكن يكفي، إذ إنّ صورة جميلتي الفرنسيّة تظهر، في ذاكرتي، وفق مسافات مؤلمة، شبيهة بإعلان عن شيء لا أستطيع شراءه أبدًا.

حين وجدتُ نفسي غارقًا بين السجّاد، وسجّادات الأسرة، والنراجيل والليثوغرافيّات المرعبة التي تمثّل مشاهد طبيعيّة، وبين صور

الخميني والتحف الشرقيّة، عرفت أنّني في البازار الكبير من دون تقصّد ذلك. كانت رائحة البخّور والبتشولي[1] تحيل الهواء نتنًا. الباعة يحاصرون السوّاح، وهؤلاء يجسّون السجّاد بلا مبالاة. اقتربَ منّي رجلان مشوربان، وهما يبتسمان، أحدهم يحمل سجّادة ملفوفة على ذراعه، بينما حيّاني الآخر وهو يحني رأسه.

ـ لدينا بالتأكيد ما تبحث عنه أيّها السيّد. لو تكرّمت وشرّفتنا بتناول الشاي معنا، لنتناقش حول السِّعْر، قال بحركات تشبه حركات علي بابا.

ـ آسف، لا نيّة عندي لشراء أيّ شيء.

ـ أرجوك أن تلقي نظرة، نظرة واحدة، على جودة نسيجنا الذي لا يُضاهى، اقترحَ عليّ وهو يشيرُ إلى شريكه.

رفع الرّجل الآخر السجّادة الملفوفة حتّى أنفي. وفي الوسط، ظهر أستونا بندقيّة. هذه المرّة، أحنيتُ رأسي بخشوع موافقًا على دعوتهما لشرب الشاي في بازار إسطنبول الكبير.

قادني الرّجلان إلى خلفيّة أحد المحلاّت، وهناك

---

(١)عشب عَطِر.

أشار إليّ الرّجل الحامل بندقيّته، إلى أريكة، بينما كان الآخر يتحدّث مع أحدهم عبر هاتفه النقّال.

حين أنهى حديثه، عاد ليتحدث بنبرة احتفاليّة.

ـ إنّنا لا نعرف لا من تكون ولا أيّ لعبة تلعبها، لكنّني أفترض أنّك ستتحدّثُ سريعًا. عليّ أن أقول لك أيضًا، إنّ ما قمتَ به تجاه صديقنا في الفندق، هو أمر سيّئ. المسكين، أصبحتْ أذنه مثل كُبَيْبَة لحم، كذلك أتلفتَ مصالح تابعة لإرث الولايات المتحدة الأميركيَّة، وهذا أمر جدير بالعقاب.

ـ أنا آسف، لكنّه هاجمني وكان عليّ أن أدافع عن نفسي، اعتقدتُ أنّها عمليّة سطوٍ مسلّح. قلتُ معتذرًا.

ـ ما من عمليّات سطو ـ عادة ـ في أروقة الطابق الرّابع بفندق ريتشموند. لا أحبّ قصّتك. هل تعرف حكاية الأميرة شهرزاد. يجب أن تكون القصص جيّدة ومقنعة. حسن، أَلْهِمْ قليلاً صاحبنا.

كان حَسن يعرف أين يضرب، وجّه إلى كتفي الأيسر لطمة عنيفة بأخمص بندقيّته، جعلتني أفتح يدي. تبعت الضربةَ آلامٌ وتشنّجات رهيبة في

العضلات التي كانت تدافع عن نفسها مثلما تستطيع.

ـ الآن، وبما أنّك تستطيع تحسين حبكة القصّة، لنبدأ بسيرة موجزة عن الكاتب. من أنت؟ سألني الرّجل المحتفل.

رغبتُ في إجابته: وأنت، من أنت؟ لكنّني لم أكن في ظروف تسمح لي بقيادة الحديث. جعلتني الضربة الثانية، على كتفي الأيسر، أعتقد، بأنّ ذراعي ستسقط، بأنّها ستنزلق من كمّ سترتي مثل حشرة هامدة. لم يكن حسن هاوي استراحات طويلة عندما تُحكى القصص.

ـ إنّني سائح، وكنت أمرّ من هناك. أنا معتاد على المشي في أروقة الفنادق.

حَسَبْتُ بدِقّة اللّحظة التي كان فيها حسن سيوجّه إليّ الضربة الثالثة. انحنيت نحو اليمين، فلامس أخمص البندقيّة ذراعي المتألّمة. في اللّحظة التي أمسكتُ به بيدي اليمنى وشدَدْتُه نحو الأسفل، فَقَدَ حسن توازنه، وعلقتْ قدماه في حاشية جلاّبيته، وبما أنّه كان يقع، نجحت في انتزاع بندقيّته. كنت أجهل إن كانت مذخّرة، لكنّني لم أكن أملك الوقت لأتحقّق من ذلك. يجب الخروج من هنا، مثلما

يجب التفكير بسرعة مرّة جديدة.

ـ اِهدأ. لا تستطيع الخروج من البازار والبندقيّة في يدك. أقدّم إليك اعتذاري على سلوك حسن السيِّئ، وأقترح عليك القيام بحوار لطيف، قال المحتفل.

كانت هذه هي كلماته الأخيرة، لأنّ رأسه ترنّح فجأة، كما تحت تأثير ركلة، وذهب واقعًا على بطنه، فوق كومة من السجّاد. استدرت، فوجدت هدفي واقفًا، حاملاً مسدّسًا من عيار ٣٨ ذا كاتم للصوت، ملفوفًا بجريدة، جعل نخاع حسن النافذ الصبر، يتطاير، ليسقط بالقرب من صديقه.

ـ اِتبعني أيّها الأحمق، أمرني هدفي بالقول، وأدركتُ أنّ حدسي تحقّق حين تذكّرت لمّا رأيت وجهه للمرّة الأولى، عبر الصورة، بأنّني شعرت يومها، أنّ دربينا، سيلتقيان، عاجلاً أم آجلاً..

يومٌ رابع

الرّجل الذي كان عليّ قتله عاجلاً أم آجلاً، أنقذ حياتي وها هو يمسك بيدي كي يقودني بين ممرّات بازار إسطنبول الكبير، الملتوية. يبدو عليه، أنّه معتاد، على الإبحار في هذه المياه، إذ لم يحاول أيّ «مُشورِب» أن يبيعه ولو سجّادة واحدة.

ـ قلتُ مئة مرّة إنّ عميل البازار قد افتُضِحَ أمرُه، هَمْهَمَ ونحن نصل إلى المخرج.

ـ آه! هذا كلّ ما جاوبتُ به.

ـ هل جعلك الكلاب في الفندق عصبيًا؟ سألني وهو يُخرج هاتفه المحمول من جيبه.

ـ آه.

ـ إنّك أبله حقيقيّ. كانوا يرغبون في التأكّد أنّهم سيحصلون على حصّتهم من الحلوى، هذا كلّ ما في الأمر. على كلّ، لنذهب الآن، ولنبحث عن المال، قال لي، وبحركة، أمرني بالابتعاد قليلاً، بينما كان يطلب رقمًا.

ـ آه، كرّرت قولي.

هَمْهَمَ ببعض الكلمات غير المفهومة، شدّني من كتفي ودخلنا إلى مقهى مليء «بالمشوربين» الذين كانوا يلعبون طاولة الزهر.

طلب فنجانَي قهوة تركيّة.

ـ أفضّل كأس جِنّ، اعترضتُ بالقول، بينما كنت أغيّر خطّ دفاعي الذي اتّبعتُه خلال هربنا.

ـ أُلفظ اسم شراب كحوليّ واحد، وستترك خصيتيك هنا، على المشرب. لماذا لم تأتِ للبحث عنّي خلال المؤتمر؟ كنتُ واضحًا جدًّا في تعليماتي، قال، وهو يحرّك فنجانه.

ـ كان هناك المزيد من الكلاب، وقد جعلني ذلك عصبيًا جدًّا، اعتذرت بالقول.

عندئذ، نظر هدفي بثبات في عينيّ. لقد أفشتْ له عبارتي، للتوّ، بأنّني لم أكن الشخص الذي كان ينتظره. نظرتُ إليه بدوري. كان شخصًا قويًّا، ذا عضلات مشدودة من جرّاء ممارسة الرياضة بانتظام. تبدو عليه الثقة بالنّفس، معتادًا على فرض نفسه عبر ثقته المغرية، وقد جعلني ذلك أضحك وأنا أراه عابسًا، وهو يفكّر بسرعة كيف يتخلّص من مفاجأته.

ـ لكن، بحقّ الجحيم، من أنت؟ سألني وهو يضع يده على حزامه، ليذكّرني، بوجود مسدّسه ذي العيار الـ ٣٨، الصّامت.

ـ إنّني الملاك القاتل. لديّ أمر بقتلك، لكن ليس هنا، لا أعرف حتّى الآن أين أقوم بذلك. لكنّنا سنعرفه نحن الاثنين، حين تحين اللّحظة.

سمعنا في تلك اللّحظة بالذات صوت بوق سيّارة. وقف هدفي من على مقعده، ويده لا تزال على حزامه، وبدأ يسير متراجعًا إلى الوراء. لقد فَقَدَ كلّ حذره، كان ذقنه يرتجف وهو يحاول ـ يائسًا ـ قول شيء ما، إلاّ أنّ الكلمات لم تكن تخرج من بين شفتيه.

كنتُ أنهيتُ لتوّي، قهوتي المخيفة، حين امتلأ الجوّ بصفير جرس إنذار سيّارات الشرطة.

ـ ماذا يجري؟ سألت الخادمِ وأنا أدفع ثمن القهوة.

ـ القضيّة ذاتها. لقد قتلَ الإرهابيّون الأكراد تاجرين في البازار.

خرجت، ومرّة جديدة، تهتُ وأنا أمشي خبط عشواء. لكن، ماذا يحدث لي بحقّ العاهرات؟ للمرّة الأولى، خلال مسيرتي الاحترافيّة الطويلة الكاملة، أنبّه فيها ضحيّتي القادمة، وفي أعقابي،

ربّما، رجال الـ DEA ونصف تجّار هذه المحلاّت الثلاثة آلاف الموجودة في هذا البازار الكبير الذين يعطون أوصافي للشرطة أو للجيش التركيّ. يا للمصيبة، سيتمّ إخطار الحلف الأطلسيّ بالأمر.

عند الخامسة من بعد الظهر. كان الحرّ جهنّميًا في إسطنبول، فقرّرت البحث عن برودة أحد الصروح المهيبة الخيّرة. كان مسجدًا أوتاركيًا، إذ من حدائقه، أستطيع رؤية لسان الجسد الإسمنتيّ على البوسفور الذي يصل أوروبا بآسيا من دون براهين طنّانة.

وبينما كنت أنحني على سبيل نبع ماء، شاهدت الشخص الذي كان يلبس سترتي. ظهر على وجهه انهماك ما كانهماكي...

ـ لقد حطّمتَ الرّقم القياسيّ العالمي في ارتكاب الحماقات، قال لي بمثابة تحيّة.

ـ أعرف. ساعِدْني على التفكير.

ـ لا تملكُ وقتًا كبيرًا. لتستقلّ سيّارة أجرة ولتذهبْ إلى المطار. سيقوم هدفك بالأمر ذاته، هذا إن لم يكن قد طار إلى مكان لا يعرفه غير الله. لن يكون الأمر سيّئًا إن قمت بالاتّصال بباريس. ربّما ترك لك الوسيط رسالة على المجيب الآليّ.

تبعتُ نصيحة قريني. في المطار، اشتريتُ بطاقة إلى فرانكفورت. كانت هذه هي أقرب رحلة إذ تنطلق بعد ساعتين. في البار الدوليّ، وبعيدًا عن حماقات النُدل المسلمين، ابتلعت ثلاث كؤوس من «الجِنّ» واتّصلت مباشرة بباريس، بشقّة الوسيط. لم تكن هناك أيّ رسالة على المجيب الآليّ. أقفلتُ الخطّ وهممت بالتوجّه إلى قاعة الإقلاع، حين دفعني دافع غريب على طلب الرّقم الباريسيّ الآخر، رقم ذاك المكان الذي كنت لفترة قريبة أسمّيه منزلي، كَمِثْلِ غبيٍّ يدفع بانتظام ما يتوجّب عليه.

كانت هناك العديد من الرّسائل، وكلّها من أصدقاء جميلتي الفرنسيّة، إذ تعبّر عن انشغالهم الجماعيّ لتأخّرها. هناك صوتها أيضًا، إذ كان يرنّ كما لو أنّها تتحدّث وثمّة خنجر تحت بلعومها.

«هذا أنا، أجبني، أرجوك. أنا بحاجة لأن أتكلّم معك. لا أعرف ماذا يصيبني، إلاّ أنّني بحاجة إليك، وفي الوقت ذاته لا أستطيع العودة قبل أن أراه. لا تحتقرني. أنت طيّب جدًّا وكريم جدًّا. سأعود ما إن أتكلّم معه. أحبّك بيد أنّني لا أعرف ما يصيبني..».

أقفلتُ الهاتف من دون أن أسمعَ نهاية كلامها.

كنت أشدّ امتلاء بالمشكلات من أن أقوم بدور ساعي بريد القلب.

استمرّت رحلة إسطنبول فرانكفورت خمس ساعات، نِمْتُ خلالها أربع ساعات بلا انقطاع، وقد ساعدني على ذلك بعض زجاجات «الجِنّ» الصغيرة التي قدّمتها لي مضيفةٌ ذات كرم مثاليّ.

قبلِ تنفيذ بنود أيّ عقد، أحاول أن أنام كثيرًا وأفضَلُ طريقة للقيام بذلك، تجنّب الأحلام، تلك الأراضي التي نؤخذ إليها من دون أيّ استشارة. أحد الزّملاء الإيرلنديّين علّمني طريقة لتجنّب ذلك. علينا أن نفكّر بشرشفِ مريض، أخضر، يغطّي شيئًا فشيئًا، كلّ ما شاهدناه حتّى اللّحظة التي نغلق فيها أعيننا. كان الإيرلنديّ يسمّي ذلك «يوغا» القاتل، وقد برهن الأمر دائمًا عن فعاليّة، بيد أنّه، في الطائرة، جاءت صورة جميلتي الفرنسيّة، الملعونة، لتثقبَ الشرشف الأخضر ولتنبثقَ منه بنداوة وإثارة كما لو أنّها خرجت لتوّها من بحيرة مرجانيّة.

قادتني إلى حديقة اللوكسمبورغ ذات يوم خريفيّ، قشّرت لي حبّات كستناء ساخنة اشترتها عند مخرج محطّة مترو «غوبلان»، داعبث صدري

بتلك الحركات غير الواعية، الناجمة عن تعب شديد تُحْدِثُه نشوة الجماع المتتالية، ما جعلني أشرب جرعات من «السانسير» البارد من فمها الحارّ، فكتبتْ بلسانها جملاً غراميَّة على المرآة. حبستْ يدي بين ساقيها وأنا أدهنها بالكريما على أحد شواطئ بويرتو ريكو. أمرتني بأن أضاجعها على عجل فوق إحدى طاولات «البلاك ـ جاك» في أحد كازينوهات أورلاندو. قرأتْ لي قصائد لبريڤير وتوماس، وشعراء آخرين جعلتني جَسُورًا. دمدمتْ لي بأغاني بريل وأقسمتُ لها أنّني أفهم كلامها. لم يكن من السهل أن أستيقظ دون أن أتشنّج عند ذكر اسمها الملعون.

سائق السيّارة الذي أقلّني من المطار إلى وسط المدينة، كان تركيًا، إلاّ أنّ جنسيّته لم تكن لتستثنيه من قبيلة الفضوليِّين العالميّة.

ـ كيف وجدتَ إسطنبول؟ مدينة جميلة! أليس كذلك؟ بصق من دون رحمة.

ـ وكيف تعرف أنّني آتٍ من هناك؟

ـ لأنّها كانت الرّحلة الدوليّة الأخيرة المحميّة. أتعرف عمّا أتكلّم؟ ثمّة طائرة تحطّ في فرانكفورت كلّ ثلاث دقائق، لكنّ الرّحلات

القادمة من تركيا تحطّ على مدرج تحت حراسة مشدّدة. وذلك بسبب الأكراد، كما تعرف؛ إنّهم عصبة من الإرهابيِّين، والألمان يحتاطون لذلك.

ـ لم تجرِ الأمور على أكمل وجه، بالنّسبة إليّ في إسنطبول.

ـ لا يدهشني ذلك. هذا ما يحدث للسيّاح الذين لا يرغبون في الاستماع للنصائح. في إسنطبول، لا نستطيعُ أن نبحث عن امرأة حتّى وإن كان المرء أَلَنْ دولون. لكن هناك السويديّات والألمانيّات في إديرن. إنّهنّ يستحممن عاريات ويشوين أنفسهنّ على الرّمل. حاليًا، وإن كنت كثير التطلّب، فإنّ شوارع «غالاطا» مليئة بالمراهقات الحالمات. تمامًا كما في «كاداكيه»، إلاّ أنّ المارك يفتح لك كلّ القلوب وكلّ المؤخّرات الصغيرة.

ـ شكرًا على هذه المعلومات، إلاّ أنّني أرغب في مضاجعة امرأة مشعرة. أضف إلى ذلك أنّ التشادور يثيرني مثل بهيمة، قلت لابن الله البعيد.

في فندق «فرانكفورترهوف»، أُنزِلتُ في غرفة مساحتها أشبه بملعب كرة قدم. طَلبت زجاجة «جِنّ»

واتّصلت بالوسيط.

ـ عليّ أن أحادثك مطوّلاً وحالاً.

ـ حسنًا. أينما كنت، اِبحث عن مقصورة هاتف عموميّ واتّصل بي خلال نصف ساعة على رقم تنساه دائمًا. قال لي وهو يعطيني رقم هاتف نقّال.

انتظرت في بهو الفندق. كان مليئًا بالفتيات الجميلات، وهو أشبه ببرهان مبالغ فيه عن قدرة الجمال الذي يهبه الجنس النسائيّ. ثمّة بطاقات معلّقة على فساتين مقوّرة تفيد أنّ معرض التخطيط يدور في فرانكفورت. بدا الأمر كما أنّني أرى جميلتي الفرنسيّة تُستنسخ في متاهة المرايا. لكن، وكما تعرف، فإنّ الجمال سراب، فذهبتُ إلى مقصورة عموميّة كي أحدّث الوسيط.

ـ أعشق مهارة التوليف، قال لي.

ـ شاهدتُ ذلك. حتّى أنّني قمت بتصفية أحد عملاء الـ DEA، ومن ثمّ أنقذ رجلنا جلدي بعد أن تخلّص من شخصين. من هو هذا الشريك الذي أوصى على الطلبيّة.

ـ الـ DEA! سحقًا. لا تعلّقْ إلى هذا الحدّ. هل أنت متأكّد؟

ـ لم أشاهد قبلاً تماثلاً ناجحًا إلى هذا الحدّ.

ـ أعتقد أنّهم زادوا راتبك. أتّصلُ بك غدًا على باريس، ظهرًا. تصرّف، كي تصل في الوقت المحدّد. وأقفلَ الخطّ.

حين خرجت من المقصورة، هاجمتني فتاة نحيفة ذات عينين خضراوين.

ـ إنّه قميص من ماركة كينيزو. قالت لي بالفرنسيّة.

لم أرغب في مناقشة التشابه، إذ من المحتمل جدًّا أن يكون غاليري «لافاييت» يبيع قمصانًا متلائمة.

ـ أحسنتِ يا صغيرتي. تعالي. سنذهب لدراسة العروة، أجبتها وأنا أعانقها. كانت عيناها الخضراوان تخفيان السّحر الذي يسمح بتجنّب الأحلام.

يومٌ خامس

في الثامنة من صبيحة اليوم التالي، وتنفيذًا لأوامر الوسيط، وجدتُ مؤخّرتي تستند، بشكل جيِّد، خلف مقود سيّارة مرسيدس بنز، في أحد مواقف سيّارات الأجرة بمطار شارل ديغول. كانت طائرة الكونكورد ستحطّ بعد بضع دقائق، وبين ركّاب رحلة نيويورك ـ باريس، يوجد ذلك الكائن الذي لم أكن أعرف سوى صوته.

ـ أخشى كثيرًا أن تكون ألعابك الصغيرة في إسطنبول قد أعادت خلط الأوراق، قال الشخص الذي كان ينظر إليّ عبر المرآة العاكسة.

ـ أتحمّلُ مسؤوليّة ذلك. لقد قمتُ بما كان عليّ القيام به، ولا تسألْنِي لماذا.

ـ أعرف لماذا قمتَ بذلك، لقد أهلكتْكَ هذه الأنثى الصغيرة، وها أنت أصبحتَ متعبًا بشكل كامل. ألا تخشى لقاء الوسيط؟ تعرف أنّه في مهنتك، لا يوجد أيّ إعفاء من العمل، بل توزيع

شهادات وفاة.

ـ يأتي من أجل أمر ما. ولا مرّة أخللتُ بالتزام ما.

ـ ولا مرّة؟ سألني بتهكّم.

بدّلتُ وجهة المرآة الارتداديّة بضربة يد كي يتوقّف عن الكلام.. إلاَّ أنّني كنت أشعر بأنّه محقّ. ما الذي يحدث لي، بحقّ العاهرات؟ في الصباح الباكر، بعد وصولي إلى فرانكفورت، ذهبتُ إلى الشقّة كي أنتظر مكالمة الوسيط. كان دقيقًا في موعده. اتّصلَ بي من مطار كينيدي وأعطاني تعليمات لأقوم بتنفيذها. من ثمّ، مشيت كي أصفّي ذهني، إلاَّ أنّ قوّة لا تقاوَمُ قادتني حتّى الشقّة التي كنت أتقاسمها قبل عدّة أسابيع مع جميلتي الفرنسيّة.

كلّ ما كان موجودًا فيها تراءى لي بعيدًا وغريبًا. التلفاز، الأثاث، الڤيديو، جهاز التسجيل، اللّمبات، السّرير الكبير، الأسطوانات، الكتب، أيضًا الكتب، اللوحات، البار، البيّاضات الموضّبة في الخزائن، لا شيء من ذلك كلّه كان يخصّني، لا شيء كان على علاقة بي. قرّرتُ وضع بعض البزّات وبعض القمصان في حقيبة كي أرحل من هنا، نهائيًّا. بينما كنت أقوم بذلك، كانت عيناها تراقبانني

من كلّ الجهات، عيون مضاعفة من جرّاء دزّينات الصور التي كنت ألتقطها لها في أماكن سعيدة والتي علّقتها بنفسي على الجدران. حينذاك رنّ جرس الهاتف، لثلاث مرّات، وهو الوقت الذي يتطلّبه المجيب الصوتيّ كي يبدأ بالعمل. إنّها هي. كان صوتها بعيدًا ومتعبًا. تحدّثتْ عن الحبّ، عن خطأ رهيب، عن خجلها وعن عودتها حين تنجح بالانسحاب. أصرّتْ على كلمات الحبّ، مذكّرة بالأيّام السعيدة، لاعنة نفسها، وكنت في هذه الأثناء، أضربُ الجدران، حتّى نزفتْ يداي كي لا أستسلم لمحاولة رفع سمّاعة الهاتف.

ـ لقد خُنْتِنِي يا صغيرتي. لا أقبل نوعًا كهذا من الخيانات، هممتُ وأنا أغلق الباب. طاف صوتها في وحدة هذه الشقّة التي لن أعود إليها مطلقًا.

اقتربَ من السيّارة رجل سمين يحمل حقيبة صغيرة وواقي مطر. فَتَحْتُ بابها.

ـ حسنًا. ها نحن نلتقي في نهاية الأمر. كان يجب أن لا يحدث هذا اللّقاء أبدًا، لكن، هكذا هي الأمور في النهاية، قال الصّوت الذي كنت أعرفه جيِّدًا.

ـ ستقول لي أين يجب أن أقلّك.

ـ علينا التنزّه قليلاً. لنمشِ قرب نهر السّين إن كان ذلك لا يشعرك بالضجر، قال.

كان اللّيل نديًّا، ناعمًا، وبعد أن ركنّا السيّارة مشينا قرابة نصف ساعة في محيط ساحة التروكاديرو. كان وسيطي يدخّن سيجارة إثر سيجارة، سعاله جافّ، وفي كلّ مرّة كنت أقوم فيها بإشارة، ولو صغيرة، كي أتكلّم، كان يجيبني بحركة من يده، تسبق قوله «ليس بعد يا صغيري، إنّني أفكّر». في النهاية، أشار لي بمقعد وجلسنا عليه.

ـ قُلْ لي، ألديك ما تشتكي منه، من أرباب عملك؟

ـ كلاّ، قطعًا لا، وأنت تعرف ذلك.

ـ ممتاز. أنت رجل غنيّ. ما فعلته بالمال الذي كسبته لا يهمّني، مطلقًا، بيد أنّه يشكّل مبلغًا كبيرًا. أنت في وضع مثاليّ كي تتقاعد.

ـ بالضبط.

ـ لم ترتكب الكثير من الهفوات، نفّذت جميع عمليّاتك. أفترض أنه التعب، التوتّر، كما تقول حاليًّا. إنّه تحذير، عليك أن تتقاعد الآن.

ـ عليّ أن أفهم إذًا أنّك وقّعتَ على ورقة إدانتي؟
ـ لا تكن شخصًا ميلودراميًا. صحيح أنّك سبّبت لنا بعض المتاعب، بيد أنّنا وثقنا بك دائمًا. لست قاتلاً نمحوه بشحطة قلم. أنت محترف محترم ونرغب في أن تتقاعد بشكل محترم.
ـ حسن، ماذا عليّ أن أفعل؟
ـ أن تنفّذ مهمّتك إلى آخرها، لكن وحدك. إنّها أوّل وآخر مرّة نلتقي فيها. لم يعد هاتف الاتّصال موجودًا وعليك أن تعرف أنّني لن أخابرك مرّة أخرى. عليك القيام بعملك إلى آخره، وبحسب الأمور المتّفق عليها. ستقبض مبلغًا مضاعفًا، إلاّ أنّني أصرّ على رغبتنا في أن تتصرّف وحدك وبسرعة.
ـ حسنٌ. مُوافق. بلا معلومات، بلا دعم، وحيدًا، أوافق.
ـ أهناك أسئلة أخرى قبل أن نفترق؟
ـ لماذا عليّ أن أقتله؟
ـ أمن المهمّ حقًّا، أن تعرف ذلك؟
ـ إنّها مهمّتي الأخيرة. اعتبرْ ذلك بمثابة فضول متقاعد.
ـ ولِمَ لا. هذه هي القصّة: يخيف ڤيكتور موجيكا

الجميع. إنّه شخص لبق، ذكيّ، من الصعب الإمساك به، وبخاصّة أنّه شخص فوق كلّ الشبهات. حتّى أنّه لم يتجاوز إشارة المرور الحمراء في حياته، ومع ذلك، فقد منع عدّة شركات تهرّب المخدّرات إلى الولايات المتحدة، من العمل. قام بخدعة كبيرة، حيث تزوّد بالبضاعة من الأسواق الآسيويّة، حطّم الأسعار. لم يعجب الأمر هذا لا الكولومبيّين ولا ناس ميامي، إلاّ أنّهم لم يستطيعوا أن يسبّبوا له الأذى، إذ يملك أفضل وسائل الحماية.

- الـ DEA؟

- بالضّبط. إنّه يزرع رجال الـ DEA وهم يهتمّون به كأنّه طفل. والأغرب من ذلك كلّه أنّ بضاعته، وهي ليست غالية، ذات نوعيّة ممتازة. إنّه أشبه بمؤسّسة خيريّة للمخدّرات، لهذا السبب، علينا إزاحته. أفهمتَ.

- كم لديّ من الوقت؟

- قليل جدًا. حُجز لك مكان على متن طائرة كونكورد، غدًا، متوجّهة إلى مكسيكو. مفاجأة إسطنبول بدّلت خططه، فقرّر العودة إلى هناك. عليك أن تضرب ضربتك قبل أن يتحرّك.

ـ وجثث البازار، لمن هي؟
ـ من المجنّدين. قتلة بخدمة الـ DEA في إسطنبول. ظنّوا أنّك أحد القتلة الكولومبيِّين، أمّا موجيكا، فقد أنقذك لأنّه اعتقد أنّك رسوله، إنّك ناقل المال المكلّف بدفعه ثمنًا لعمليّة تسليم الهيروين. ظنّ أنّك وقعت بين أيدي القتلة. قصّة مشوّشة. حسنًا، أنت تعرفها، وداعًا وحظًّا سعيدًا أيّها القاتل.

رأيته يبتعد بخطى متعبة صوب محطّة سيّارات التاكسي، استقلّ واحدة، وابتلعته المدينة للأبد.

بقيت جالسًا لفترة طويلة، أفكّر بأنّني كنت أمام مهمّتي الأخيرة. سحقًا، إنّه وقت التقاعد، لكنّني لن أكون واحدًا من أولئك المتقاعدين الذين يقتلون سأمهم وهم يطعمون الأحلام المهزومة أو تلك الفئران الكريهة ذات الأجنحة التي تدعى الحمام. عندي حساب مصرفيّ مريح جدًّا في جزر كايمان، وقد فكّرت دائمًا بالتوقّف عن العمل حين أبلغ الخمسين من عُمري، إنّ لجميع النّاس مشاريع لمثل هذا اليوم. مشروعي بسيط: بيت في مواجهة البحر في منطقة بروتاني، مع جميلتي الفرنسيّة التي ستقرأ لي قصائد غير مفهومة في حين أشرح لها كلمات

البوليرو. خراء. يجعلني تقاعدي شخصًا وحيدًا كغريق. خراء. عليّ القيام بشيء ما كي أتجنّب ذلك.

استقللتُ سيّارة المرسيدس، وبدأت بالدوران في الشوارع التي تتلاقى عند قوس النصر. هناك، تَهَبُ أجمل عاهرات باريس أنفسهنّ كفاكهة ناضجة. ثمّة سوداوات وبيضاوات وبيضاوات جدًّا وخلاسيّات وڤيتناميّات وصينيّات ومخنّثات ذوات أكتاف عريضة وصغيرات يُشبهن سكرتيرات متدرّبات. في اللّحظة التي كنت أهمّ فيها بالمغادرة، رأيت التي كنت أبحث عنها: فتاة صغيرة، ذات وركين مشدودين، شعرها كستنائيّ، ونهداها صغيران قاسيان، وفمها صغير أحمر.

ـ اِصعدي!

ـ ثلاثمائة فرنك في الساعة، قالت وهي تجلس.

ـ أضيفي صفرًا إلى الرّقم، وسنمارس الحبّ طوال اللّيل.

ـ أأنت أمير، أم سلطان. سنتضاجع في قصرك؟

ـ في فندق «لوتيسيا»، أيناسبك؟

ـ أعتقد أنّك الملك سليمان، وأنا ملكة سبأ.

ـ حسنًا، أنا مستعدّ لتلبية جميع رغبات ملكتي.

نظر موظّف الاستقبال في فندق لوتيسيا، بحذر، إلى تنّورة شريكتي القصيرة جدًّا. وبينما كنت أملأ الاستمارة، بحث عن كلمات لبقة لطرح سؤاله المسموم.

ـ استمارة واحدة للسيّد والسيّدة؟

ـ السيّد ملأ استمارته للتوّ، بينما الآنسة متعبة جدًّا. أثمَّة قانون يمنع والدًا وابنته من الإقامة معًا في هذا الفندق؟

ـ أبدًا، يا سيّدي، لا أرغب أبدًا في إزعاجك.

ـ لكنّك ظننت أنّ ابنتي، عاهرة؟

ـ أرجوك.. لم أفكّر أبدًا بشيء مثل هذا.

ـ أبي، هناك في المحل، بلوزة تعجبني، أشارت المسؤولة عن أبوّتي الجديدة.

ـ خذيها وضعيها على فاتورتي.

كانت رفيقتي في الثالثة والعشرين من عمرها، هكذا مكتوب على بطاقة هويّتها التي تظهرها نحيفة وذات مظهر كئيب، كمظهر الفتيات اللواتي نشأن في الضاحية الباريسيّة. أعتقد أنّ شهرين من المداعبات كافيان ليجعلا منها امرأة جميلة. لديها موهبة في ذلك. بعد أن سألتني إن كان بإمكانهم جلب سندويتشات، وبعد أن قلت إنّني طلبتُ

الكركند المطهوّ على الطريقة الأميركيّة، جلستْ على ركبتي كي تعض لي أذني وهي تهمس لكي لا أنسى الشمبانيا.

بعد مرور عشر دقائق، امتلكت الغرفة، فبدأتْ تتأمّل ببهجة جسدها العاري المنعكس في جميع المرايا. قرع الخادم، الذي جاء بالطلب، الباب بخفر، فلمّت ثيابها. واختفت في الحمّام. هذه الصغيرة إنّها ذات شأن، شرط أن يجعلها رجل، امرأة.

ـ لَمْ تأكلْ شيئًا. ألستَ جائعًا؟ سألتْ عبر فمها الصغير الأحمر.

ـ كلاّ. لا يأكل المرء الكركند لأنّه جائع، بل لمجرّد الشهوة.

ـ بطبيعة الحال. الفقراء جائعون والأغنياء يشتهون.

ـ من أيّ ضاحية تجيئين؟

ـ من كريتاي. والشمبانيا، أنشربها لأنّنا نشعر بالعطش؟

كانت سيّئة جدًا في السرير. فهي لا تجيد إلاً تحريك وركيها، لا لسبب في ذلك، إلاً لاستعجال الزبون، بيد أنّها كانت تجيد الكذب حتّى تتصنّع

الرّعشة المصاحبة بصرخات صغيرة.

- ماذا تعمل؟ سألتني وهي تداعب شعيرات صدري.

- أقتل النّاس. إنّني قاتل، قاتل.

- مثل ليون؟ أشاهدت الفيلم؟

- أجل مثل ليون. لكنّني لستُ غبيًا.

غفت على صدري، حينذاك حدّثتها وأخبرتها باسم امرأتي. قلت لها بأنّني سأسامحها، وبأنّني حين أنتهي من عقدي الأخير، سأذهب إلى المكسيك كي أبحث عنها، لنعود معًا، ونعيش قرب البحر، بعيدًا عن الموت.

يومٌ سادس

بعد أن حلّقت طائرة الكونكورد بسرعة تفوق سرعة الصوت مرّتين، بدت رحلة نيويورك ـ مكسيكو، رحلة رتيبة كرحلة في القطار.

ـ ومن أين ستبدأ، سألني، في المرآة، شخص كان يرتدي سترة تشبه سترتي.

ـ أريد أن أتزوّد بسلاح ناريّ.

ـ عليك بالبراونينغ عيار ٤٥! ألحّ عليّ.

ـ من المستحسن عدم الإفراط في زيادة المتطلّبات. لكنّي سأجد شيئًا فعّالاً. طمأنته بالقول.

ـ حظًّا سعيدًا، أيّها المتقاعد، تمنّى لي الرّجل المجهول.

ـ سأترك حقيبتي في المستودع. اِعتنِ بها.

كان السائق الذي نقلني من المطار إلى «الزونا روزا» شخصًا يحترف تقديم النصائح الجيّدة. وجد أنّه يجب عليّ أن أحيا حياة زاهدة، أن لا أشرب

وأن لا أتناول الطعام لأنّ الحكومة قامت بتسميم الكثير من أنواع الأطعمة والمشروبات، وذلك كي يهتمّ النّاس بأشياء أخرى ولكي لا يتحدّثوا عن انخفاض القيمة الشرائيّة.

ـ تمامًا مثلما يحدث في إنكلترا أيّها القائد. لكي يوقفوا الكلام، هناك، عن الأمير تشارلز وعن عشيقته، اللّيدي تامباكس، وعن ديانا النحيفة والأميرين الصغيرين، اخترعت الملكة العجوز، هذه الحقيرة، قصّة البقر المجنون.

كانت الزونا روزا عبارة عن سوبرماركت للأسلحة. قمت بجولة وأنا أتأمّل خردوات الحرس المحلّفين التابعين لعدّة شركات أمنيّة. عند بوّابة الخروج، أعجبني مسدّس كولت من عيار ٣٨ ملم، كان يتخطّى غمد شخص نحيف طويل. لففتُ بعناية ورقة نقديّة من فئة المئة بيسوس واقتربتُ منه.

ـ اعذرني، لكنّي بحاجة إلى مساعدتك، قلت له وأنا أضع الورقة النقديّة في جيب قميصه.

ـ أنا في خدمتك يا سيّدي، أجابني متظاهرًا بأنّه لم يرَ الهديّة.

ـ ثمّة لوطيّ في المراحيض. ذهبت لأتبول فقام

بلمسي. هذا أمر لا نقوم به مع رجل. ألا تستطيع أن ترهبه قليلاً.

ـ «أوكي». سنطرد هذا اللّوطيّ، قال لي وهو يرتعش.

ـ لكن عليك أن تكون كتومًا، لأنّه ابن أحد الأصدقاء ولأنّه ابن عائلة محترمة. سأذهب إلى هناك أوّلاً وسأحدّثه، ومن ثمّ تصل وتجندله خوفًا، خوفًا كبيرًا.

ـ لا تهتم بالأمر، سأتبعك، سنرى هذا الشاب.

في مراحيض الرّجال، شتمني رجلان، كانا أمام المبولة، حين أظهرت لهما لافتة مكتوب عليها: «تنظيفات المراحيض، نرجو المعذرة على الإزعاج».

انتهيا من قضاء حاجتهما فخرجا. قمت بتعليق اللافتة على الباب ومن ثمّ أغلقت أبواب حجرة الحمّام وانتظرت. وصل الحارس بعد لحظات.

ـ لقد اختبأ هنا. شعر بالخجل، قلت له وأنا أشير إلى أحد الأبواب.

ـ أخرجْ أيّها الشاب، أخرجْ، لن يصيبك مكروه أكّد له الحارس وهو يقترب من الباب.

ضربتُ له رأسه بالحائط وأنهيتُ عملي بضربتين

على رقبته. كان خفيفًا جدًّا حتّى أنّني لم أجد مشقّة في تركه جالسًا فوق أحد المراحيض. كان الكولت رائعًا، والرّصاصات الاثنتا عشرة، العائدة للمشط، انتقلت سريعًا إلى جيوبي.

غادرت الزونا روزا متسلّحًا ومشيت حتى السانبورنز في جادة أنسوريجنتس. لا أملك أيّ سبب خاصّ للذهاب إلى ذلك المكان، إلاّ أنّني تذكّرت أنّ إحدى الصُّور كانت تُظهِرُ هدفي وهو أمام مكتبة «البندول»، القريبة من هنا، في قرية كونديسا. تذكّرت أيضًا صورة أخرى، وهو يقف أمام منزل ذي لافتة لا تظهر منها سوى كلمة «ڤيدا». احتسيت زجاجة بيرة وانتظرت أن يأتيني الوحي.

«ڤيدا»، قرية كونديسا، «م. غ. ح»، قرية كونديسا، المنطقة المفضّلة عند الفنّانين والمثقّفين البورجوازيّين الصغار التقدّميّين، ولم لا تكون أيضًا مقرّ إحدى المنظّمات غير الحكوميّة، حيث إنّ اسمها يتضمّن كلمة «ڤيدا».

كنت كمن يبحث عن إبرة في كومة قشّ. وجدتُ في منطقة باخا كاليفورنيا، فندقًا يحمل اسمًا ذا دلالة: النصر. استأجرتُ غرفة وطلبتُ استعارة نسخة من الموسوعة التي لم تكن في الواقع سوى

دليل هاتف المقاطعة الفيديراليّة.

عند الخامسة صباحًا، وبعد أن شربتُ عدّة ليترات من الكوكا ـ كولا، وبعد أن دخّنتُ خمس علب سجائر ودرستُ أسماء مئات المؤسّسات والمنظّمات التي ينتهي اسمها بكلمة «ڤيدا»، وجدتُ ما كنت أبحث عنه: مؤسّسة سكن خاصة بالڤيدا، عند تقاطع شارعي أتليكسكو وألفونسو رييس في منطقة كونديسا. اشتعل رأسي بسبب لقيتي هذه، تفحّصتُ التدابير التي تجعلها تتلاءم مع ما كنت أعرفه عن هدفي: إسطنبول. مؤتمر. المدن الكبيرة. مؤسّسة للسكن. مشكلة المهاجرين. ڤيدا. سمعت نفسي أقول: «بينغو!» بينما كنت أرتدي سترتي وأتفحّص طاحونة المسدّس.

كان باب الفندق مقفلاً بسلسلة كبيرة فوجدت صعوبة في إيقاظ الحارس الليليّ في قاعة الاستقبال.

ـ لا يمكنك ذلك. لا أستطيع أن أدعك تخرج في مثل هذه الساعة. لا يزال الوقت مبكرًا جدًّا، كما أنّ رجال القضاء لا يزالون في الشارع. سيسرقون حتّى روحك. من الأفضل أن تنتظر حتّى السادسة. هيّا ستدفع ثمن البيرة وسأقدّم لك

«الكيزاديلاس» الذي طَهَتْهُ زوجتي.

وبينما كنت أفتح زجاجات الكورونا، شكرت حذر هذا الرّجل. لقد نسيتُ، أنّه في اللّيل، تصبح مكسيكو، مُلك مجرمي الشرطة القضائيّة. شربنا وأكلنا الكيزاديلاس البارد، بيد أنّه كان طيّب المذاق، وعند ساعات النّهار الأولى، خرجت.

تعرّفت على المنزل في الحال. إنّه الظاهر في الصورة. لم يكن ينقصه إلاّ أن يقف هدفي أمام الباب. في مقابل المنزل، على الجانب الآخر من شارع ألفونسو رييس، كانت هناك كنيسة. لحسن الحظ، تفتح المعابد المكسيكيّة أبوابها، باكرًا، لزبائنها. كانت الكنيسة فارغة، لدرجة أنّه لم يكن من الصعب عليّ الوصول حتّى الباب الذي كان يقود إلى سلالم الجرس. كانت الدرجات مغطّاة بطبقة كثيفة من الغبار، ما يعني أن لا أحد استعملها منذ وقت طويل.

ببطء، بدأ الشارع يمتلئ بالحياة. فتح أحد أكشاك الزهور ألوانه على الصباح، بينما علّق كشك آخر الدوريّات والمجلاّت. دخل صبيّ إلى المنزل الذي كنت أراقبه ولم يخرج منه. بعد قليل، دخلت فتاتان، وقد عادتا لتظهرا بعد نصف ساعة. قرع

ساعي البريد الجرس، فتح الصبيّ الباب وتناول حزمة رسائل.

مضت الساعات ببطء. كان كلّ انتباهي مركّزًا على هذا المنزل، ومن وقت إلى آخر، لم أكن أنجح في أن أمنع نفسي من تخيّل فرنسيّتي وهي تتنزّه في الشارع. ماذا سأفعل لو شاهدتها؟ أأنزل للقائها؟ هل كانت في مكسيكو أم في ڤيراكروز أو في طريق عودتها إلى باريس.

عند الساعة الثانية من بعد الظهر، توقّف خادم بيتزا أمام المنزل.

قام بتسليم ثلاث علب. ثلاث. لكنّي لم أشاهد سوى صبيّ واحد يدخل. من هما الضيفان الآخران؟

بعد الساعة الرابعة من بعد الظهر، أصبحتُ أناضل ضدّ النعاس وشكرتُ السماء على الضجّة الخشنة التي تعلن عن قدوم عاصفة من الشمال. أظلمت الغيوم السوداء الشارع بسرعة، وهطل وابل من المطر في الحال. رأيت الصبيّ يخرج راكضًا. دخل إلى السوبر ماركت الواقع عند ناحية شارع أتليكسكو، وعاد ليخرج منه بعد قليل، حاملاً علبتيْ سجائر. من مكاني، حيث أراقب، عرفت رسم

«الشسترفيلد»، فعدت لأفكّر بصديقتي الفرنسيّة، إذ كانت تدخّن هذا النّوع من السجائر.

عند الثامنة كانت لا تزال تمطر. كنت مبتلاً بالكامل وأرتعش مثل كلب. حاولت أن أبقى مستيقظًا وأنا أمرّر الرّصاصات من جيب إلى أخرى، كأنّها حبّات مسبحة. فُتح الباب مرّة جديدة، ومن جديد ظهر الصبيّ. كان في طريقه إلى إغلاق الباب خلفه، إلاّ أنّه استدار، حتّى أنّني لم أستطع سماع ما كان يقوله، إلاّ أنّه من الواضح كان يتحدّث مع أحدهم في الداخل. أغلق الباب بالمفتاح ورحل تحت المطر بخطى سريعة.

قرّرتُ أن أهبط السلالم، إذ حان الوقت، لأنّني وصلت بالضبط في الوقت الذي كان فيه عجوز يغلق أبواب الكنيسة.

ـ لم أشاهدْكَ يا سيّدي، لو تأخّرتَ خمس دقائق لكنتُ أغلقتُ عليك حتّى يوم غد.

اشتدّت العاصفة. لم يكن هناك مخلوق في الشارع. وفجأة وبعد سلسلة من الزواعق. انقطعت الإضاءة العامّة.

توقّفتُ أمام المنزل. أمسكت بالمسدّس بيدي اليمنى. انتظرت الزاعقة القادمة كي أدفع الباب.

كان المنزل غارقًا في الظلام إلاً عند طرف الممرّ، إذ يلمع منه نور ضعيف. مررت، وأنا لصق الحائط، أمام غرفتين، تُسْتخدَمان كمكتب، ومن ثمّ أمام المطبخ. رفعت زناد مسدّس الكولت وفتحت الباب الأخير بضربة قدم.

فَتَحَتْ جميلتي الفرنسيّة عينيها المليئتين بالدموع ورغبت في أن تنهض من على «الكنبة» حيث كانت جالسة، إلاً أنّها حين شاهدت المسدّس اكتفت بفتح فمها الصغير الأحمر. كان نور الشمعة الذي يضيء الغرفة، ينعكس على خدّيها.

كان هدفي جالسًا بقربها، يرتجف ويتعرّق. نظر إليّ وأغلق عينيه كأنّه يشير إلى أنّه يتفهّم الموقف.

ـ هي... لا تفعل لها شيئًا.. إ... إنّها فرنسيّة. لقد تورّطتْ بالأمر من دون أن تعرف، قال الهدف.

ـ كنت أرغب في العودة، بيد أنّه لم يكن بإمكاني تركه على هذه الحالة... أنظرْ إلى ما فعلوا به؟ شهقت جميلتي الفرنسيّة.

ـ أتعرفان بعضكما؟ إذًا.. ولم يستطع إكمال جملته، إذ ابتلع لسانه...

ـ العالم صغير، صغير بشكل شيطانيّ، أجبته.

ـ لقد عاد من سفره نهار أمس. جئت لكي أودّعه وفجأة وصل رجلان وحقناه بإبرة تحتوي على شيء ما. يجب الاتّصال بطبيب، لكنّه لم يدعني أفعل ذلك، تابعت صغيرتي الفرنسيّة وهي تنتحب.

ـ الـ DEA، أليس كذلك؟

ـ أولاد العاهرة.. اعتقدوا أنّني كنت أرغب في تجاوزهم بإسطنبول، لقد حقنوني بخمس جرعات، البارحة، كي يعاقبوني...

ـ ما معنى الـ DEA؟ لماذا تتحدّثان كما لو أنّكما كنتما تعرفان بعضكما بعضًا؟ لا أفهم شيئًا! لا شيء! خذني من هنا! أريد العودة إلى باريس، إلى منزلي! صرخت صغيرتي الفرنسيّة المسكينة.

ـ حسنًا، أنت تعرف لماذا أنا هنا، لكن قبل أن أقوم بمهمّتي، أريد أن أعرف لماذا تقوم بذلك. لماذا تغرق الولايات المتحدة بالمخدّرات الرخيصة الثمن؟

ـ لأنّني أكرههم، هؤلاء الفرينغو، يجب، يجب إفسادهم.. يريدون الهيروين فأعطيهم إيّاه، علينا إفسادهم من الداخل.. إنّه المنقذ الوحيد بالنّسبة إليا نحن الأميركيّين اللاتينيّين.. أتفهم..

من أجل كلّ مهاجر، من أجل كلّ مكسيكيّ، مذلول، عند حدودهم العاهرة، أنا.. أنا.. أفسد العديد منهم، أتفهم؟

ـ وداعًا أيّها المحبّ للبشر، قلت له، وأنا أقرّب سبطانة المسدّس من فمه.

كان صوت الانفجار جافًا وقصيرًا، بهذا الشكل تنبح مسدّسات الكولت ٣٨. ارتجفت جميلتي الفرنسيّة المسكينة واتّسعت حدقتاها. أخذتها بين ذراعيّ وأنا ألعن فخّ الحياة اللّعين هذا.

ـ خذني من هنا، شهقتْ وهي على صدري.

ـ بالطّبع، يا حبّي، همستُ بأذنها قبل أن أطلق النار تحت نهدها الجميل الأيسر، لأنّه عليّ القيام بذلك، لأنّني كنت أحبّها، بيد أنّني لا أستطيع التصرّف بغير هذا الشكل وبخاصّة أنّها مهمّتي الأخيرة. كنت قاتلاً، والمحترفون لا يمزجون العمل بالعواطف.

قبل أن أخرج، ذهبت إلى المطبخ، وفتحت جميع حنفيّات الغاز.

كنت أهمّ بصعود سيّارة الأجرة، من على جادّة تاموليباس، حين سمعت صوت الانفجار.

ـ ما هذا أيّها القائد؟ سألني السائق.

ـ العاصفة، وماذا يمكن له أن يكون غير ذلك؟

ـ أتزعجك الموسيقى؟

ـ كلاّ، اتركها.

وانتبهت إلى أنّه كانت تتسرّب من الراديو كلمات مصارع الثيران ذاك الذي يقول:

«رغبتُ في الرحيل، وهي تشاهد تعاستي، لكنّه كان مقدّرًا أنّني في هذه اللّيلة سأفقد حبّها».



لا يَمْزج القاتلُ المحترف، أبداً، بين عمله وعواطفه. إذ إنه ينفِّذ عقود العمل ذات المردود الضَّخم، من دون أن يتساءل عن الأسباب التي دفعت البعضَ الى أن يطلبوا منه ذلك. من هنا، ثمة سؤال عن كيفيَّة تصرُّفه إذا وقع في أحضان شقراء فرنسيَّة جميلة؟

ستة أيام من «الجري العنيف»، من مطار الى آخر، من تركيا إلى المكسيك، سعيًا وراء «هدف» غريب الأطوار، يختفي كالغبار. وهو أيضًا جريٌ وراء حبٍّ يتناثر بدوره في الفضاء.

إنّه نص ساخر، لأولئك الذين لم يَعْرفوا الشكَّ يومًا.

ولد لويس سپولڤيدا في الشيلي عام ١٩٤٩. وهو رحّالة كبير، وروائيّ عَرَفَ شهرةً واسعة مع روايته الأولى العجوز الذي يقرأ الروايات الغراميّة (صدرتْ ترجمته العربيَّة عن دار الآداب أيضًا). له العديد من الروايات تُرجم بعضُها إلى أكثر من ٢٥ لغة.

دار الآداب

هاتف ٨٠٣٧٧٨-٨٦١٦٣٣

ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

تصميم الغلاف رنا الجندي